القوة من منظور الإنسان

الإنسان من منظور وظائف الأعضاء :

الإنسان الحى هو منظومة من الحركة الدائمة ، الظاهرة، والخافية داخل جسمه، فى هذه المنظومة نتسائل عن مصدر الطاقة التى تحتاج إليها عضلات الإنسان فى حركتها وما تبذله من جهد؟

تعتبر الكاربوهايدريت "Carbohydrates" أو النشا والسكر، المصدر الرئيسى للطاقة. يتفكك الكاربوهايدريت فى الجهاز الهضمى ويأخذ فى الذوبان بحيث يسهل امتصاصه واستيعابه فى الجسم. يخزن الكاربوهايدريت فى الجهاز الهضمى ويأخذ فى الذوبان بحيث يسهل امتصاصه واستيعابه فى الجسم.

يخزن الكاربوهايدريت فى الكبد فى صورة جليكوچين "Glycogen" (سكر الكبد) يقوم الأنسولين الذى تفرزه غدة البنكرياس بتفكيك الكاربوهايدريت المختزن فى الكبد والعضلات ليحولها إلى جلوكوز، وهو المصدر الرئيسى للطاقة. يحتوى الجسم على مصدر آخر للطاقة وهو الدهون "Lipods" أو الكولسترول الذى ينتشر بشكل قطرات ضئيلة عن طريق السيتوبلازم فى خلايا خاصة لتخزين الدهون. والكولسترول مادة دهنية تختزنها جدران الأوعية الدموية فى حالات كثيرة وقد تسبب انسداد الشرايين إذاً زادت نسبتها إلى حد معين. تتكون الدهون من النيتروچين، والكربون، والهيدروچين، والأكسوچين.

يحتوى جسم الإنسان بصفة عامة على عدة أجهزة تعمل - فى الحالة السوية- بتوافق وتكامل لتكوين أعظم منظومة للخالق «عز وجل».

* **جهاز الدورة الدموية** "Circulatory System".

يدير هذا الجهاز الدم فى جميع أنحاء الجسم، ويتكون من شبكة الشرايين، والأوردة ، والأوعية الشعرية الدقيقة الممتدة عبر كافة أعضاء الجسم. يضخ الدم عبر

هذا الجهاز من خلال القلب، وينقل الأكسوچين ، والمواد المستهلكة ، والهرمونات، وسائر العناصر والمواد الكيمياوية التى يحتاج إليها الجسم.

* **الجهاز الهضمى** "Digestive System".

جملة أعضاء مترابطة (مثل المعدة - الكبد - الطحال - البنكرياس - الأمعاء . . إلخ) ، تعمل على تفكيك الطعام وامتصاصه ، وتحتوى على أنزيمات "Enzyme" أي خمائر منوعة تساعد على عملية التفكيك.

* **الجهاز الإخراجى** "Excretory System".

يشتمل هذا الجهاز على الكليتين ، والرئتين ، والجلد، والكبد. يعتبر الجهاز الإخراجى المسئول عن حذف محصول الأيض أو الاستقلاب ، وهو مجموع العمليات المتصلة ببناء البروتوبلازما ودثورها ، وبخاصة التغيرات الكيماوية فى الخلايا الحية التى بها تؤمن الطاقة اللازمة للعمليات والنشاطات الحيوية والتى بها تمثل المواد الجديدة للتعويض عن المندثر منها.

* **الجهاز العصبى** "Nervous System".

يتضمن جهاز الدماغ العصبى المركزى والحبل الشوكى ، مع فروعهما من الأعصاب المتشعبة فى جميع أقسام الجسم، وهى مكونة من خلايا تبعث برسائل فى شكل نبضات كهربائية ، يتحكم الجهاز العصبى بجميع حواسنا واستعمالنا للدماغ. يسمى الجزء من جهازنا العصبى الذى لا يقع تحت السيطرة الواعية بالجهاز العصبى اللاإرادى "Autonomic Nervous System" ، ويتحكم هذا الجزء بمعظم أعضائنا الداخلية وبأجزاء أخرى من الجسم بواسطة جهازيه الفرعيين : السمبتاوى ونظير السمبتاوى.

* **الجهاز العضلى** "Muscular System".

هو الآلية التى تتيح لنا الحركة. ويتألف هذا الجهاز من مجموعات من العضلات المندمجة مع الهيكل العظمى . إن القبض أو الشد الذى تحدثه بعض هذه

المجموعات يغير من وضع العظام من حيث صلتها بعضها بالبعض الآخر، وجميع العضلات اللاإرادية فتتحكم بحركات الأعضاء الداخلية، ولا يشعر الإنسان بنشاطها وعملها.

* **الجهاز التناسلى** "Reproductive System".

هو مجموعة من الأعضاء المنتجة للخلايا اللازمة لتكوين الطفل، والقيام بسائر الوظائف المتعلقة بالحمل، وتغذية الجنين، وحمايته داخل رحم المرأة وحتى ولادته.

* **الجهاز التنفسى** "Respiratory System".

هو مجموعة الأعضاء التى تأخذ الأوكسچين من الهواء المحيط وتوصله إلى كل خلية من خلايا الجسم بواسطة الرئتين، وتنقل ثانى أكسيد الكربون من الخلايا إلى الهواء.

* **جهاز الهيكل العظيمى** "Skeletal System".

هو الإطار الداعم للجسم، ومرسى العضلات المحركة للجسم، كما أنه يحمى الأعضاء الحيوية. إن عظام هيكل الجسم وعددها ٢٠٦ عظمة متصلة معاً بحبال متينة تسمى الأربطة، والتى تبقى على اتصال المفاصل، وفى الوقت نفسه تسمح لها بالحركة.

* **جهاز المناعة** "Immunity System".

إن الأساس فى عمل الجهاز المناعى هو التعرف على أي مادة غريبة عن الجسم والتخلص منها سواء كانت ضارة أو مفيدة، فهو يتخلص من الميكروبات التى تسبب الأمراض، وفى نفس الوقت يعتبر العضو المنقول لإنقاذ حياة الإنسان عضو غريب عليه فيحاربه ويحاول التخلص منه. يحوى الجهاز المناعى على النخاع العظمى، والغدة الثيموسية ، والغدد الليمفاوية ، والطحال، واللوز، والعقد الليمفاوية، وخلايا الدم.

تعرف الطاقة العقلية بالحدود القصوى لاستطاعة قدرات الفرد العقلية تحت أفضل شروط الأداء الممكنة. أما تعريف الطاقة العصبية كما جاء فى «موسوعة علم النفس والتحليل النفسى» (هى طاقة كهربائية صادرة من المراكز العصبية خلال المسارات الحركية تحقق الدافعية والنشاط لتحقيق الاستجابات المناسبة للمنبهات). يعتبر الجهاز العصبى جهاز اتصال يربط بين الأعضاء المتصلة بالبيئة الخارجية كالجلد والعينين والأذنين واللسان، والمخ الذى يعتبر القيادة المركزية للإنسان، ففيه يتم اتخاذ القرارات التى تمكن الجسم من القيام بالأنشطة المختلفة وفقاً للوضع القائم، ثم يقوم الجهاز المعنى من أجهزة التوصيل بنقل القرارات إلى الأعضاء المختصة لتنفيذها. يعتبر النيورون Neuron الخلية الأساسية فى الجهاز العصبى، حيث يوجد فى الإنسان حوالى عشرة آلاف مليون خلية عصبية . تتميز الخلية العصبية بوجود زائدة طويلة قد يصل طولها إلى ٦٠-٩٠ سم تسمى المحور Axon . كما يوجد للخلية زوائد أخرى قصيرة تسمى بالشجيرات، تقوم هذه الزوائد بتوصيل السيالات أو النبضات الكهربائية إلى الخلية. تعتبر عملية نقل المعلومة عملية كهربية، يتراوح فيها فرق الجهد ما بين ٥٠ ميكروفولت، ٧٠ ميكروفولت طبقاً للقيام بمجهود أو أثناء الراحة. إذا كانت طاقة الإنسان هى طاقة عضلية، فإن الطاقة الكهربائية تتواجد فى عمليات التحكم فى أجهزة الجسم ونقل الإشارات والمعلومات.

القوى من المنظور الفلسفى :

قبل أن يتعرف الإنسان على الفلسفة كمنطق وعلم ، ضاقت نفسه بأشياء فأسماها شرا، وجنحت ميوله إلى أشياء أخرى فأسماها خيراً ، وبين الخير والشر تأرجحت أفعال الإنسان. احتار الإنسان فى تصنيف القوة، أهى شر أم خير. إذا استخدمت القوى فى إيذاء الآخرين فهى شر، أما إذا اتجهت إلى مساعدة الضعيف فهى خير، ولكن من منطلق النسبية فى المنظور الإنسانى فقد أصبح تعريف القوة مجرد من معنى الخير أو الشر، فإذا كانت فى صالحه فهى خير، وإذا جاءت ضد مصالحه فهى شر. إذا كانت بداية الكون من المنظور العلمى قد حدثت من الانفجار

العظيم Big Bang حيث كان الكون كله كمادة يتركز فى كتلة صغيرة تحوى طاقة ضغط هائلة، فإن القوة من المنظور العقائدى قد بدأت فى الست أيام الأولى من خلق الكون، حيث حدث خلق السموات والأرض وخلق الإنسان متوجاً على جميع المخلوقات. منذ أن استخدم قابيل قواه العضلية فى قتل أخيه هابيل، توالت استخدام القوى من قوى عضلية، إلى الاستعانة بفروع الأشجار والأحجار، ثم استخدم الإنسان السهام والرماح والسيوف، ثم اكتشف البارود فى القرون الوسطى، حتى وصل إلى استخدام أسلحة التدمير الشامل فى العصر الحديث، يفتك بها الآخر، ويتباهى بها فى منظومة القوى.

انتهت عهد القوة العضلية كمعيار لقوة الإنسان. لقد تسلح الإنسان بقوة العقل التى سخرت له قوى الطبيعة واستغلال طاقة كوكب الأرض، ومكنته من اختراع أسلحة القتل والدمار الشامل، وسهلت له استخدام قوة المعرفة لاكتشاف المجهول وتطوير حضارته، وابتدع الإنسان القوانين التى حمته - إلى حد ما - من شرور الغير. يعيش الإنسان فى مجتمع يحاول أن يتكيف معه، ولكن ليس دائماً الآخر متوافق، فالمصالح الشخصية كثيراً ما تتعارض ، والآهواء متباينة. جاء فى الدرس الأول من فلسفة اليوجا، والتى تدعو إلى السمو بالروح من أجل التغلب على الضعف الإنسانى من جراء وجود الآخر الذى غالباً ما ينافس ويعارض ويصارع: (يجب أن تتخطى مرحلة البكاء على الكرامة المجروحة والنقد الجائر والإساءة بغير حق والملاحظات العدائية واللمز والهزء والسخرية . . والفشل وخيبة الأمل التى تحملها أطواء الحياة . . إن فرصة الإنسان الوحيدة تنحصر فى ارتفاعه بنفسه عن مستوى الحياة المادية وتحليقه فى آفاق العقل والروح العليا . . إن الإنسان الذى وصل إلى شىء من صفاء الروح يستطيع أن يعيش فى غمرة الحياة، بل يستطيع أن يكون من زعماء هذه الغمرة وهذا الصراع، ومع ذلك يحلق مرتفعاً بنفسه عنها فيرى الدنيا على حقيقتها المجردة . . يجب أن يكون سالك الطريق شجاعاً وأن يكون مسيطراً على عواطفه الطبيعية). إذا كانت فلسفة اليوجا قد دعت إلى قتل الطمع والطموح، وقتل الرغبة فى الحياة، وقتل الرغبة فى الترف، فإنها حثت قبل ذلك على العمل كما

يعمل الطامعون الطامحون، واحترام الحياة كما يحترمها الراغبون فى الحياة، والإحساس بالسعادة مثل الذين يعيشون وهدفهم السعادة. عندئذ لن يشعر الإنسان أبداً بالإحباط، الذى يتأتى من الفشل فى تحقيق غاياته أو عدم الوصول إلى أهدافه. حتى إذا امتلك الإنسان مقومات القوى، فدائماً الفرد أضعف من آخرين، وفوق أي قوة، قوة أكبر وأعظم وتتسلسل القوى حتى تصل إلى قوة الخالق . لن يشبع الإنسان كل شهواته، ولن ينال كل رغباته، ولن يصل إلى كل أهدافه ما دام :

- يوجد الآخر ذو المصالح المتعارضة.
- يوجد التشتت فى القوى ، واستحالة امتلاك كل أو معظم مقوماتها.
- توجد غرائز وشهوات - كائنة فى جيناته - تتملك الإنسان.
- وأخيراً وهو الأهم وجود خالق القوى . . اللّه عز وجل.

لقد أوجد الخالق فينا قوة الابتكار والإبداع، لذا يجب أن نستخدمها فى العمل من أجل العمل وليس طمعاً فى فائدة دنيوية زائلة . . الأمل يمدنا بقوى كبرى ليؤدى الإنسان رسالته الذى تواجد فى هذه الحياة من أجل أن يؤديها دون حقد أو كراهية أو صراع، يجب أن يقتل الإنسان الرغبة فى الحياة التى تحمله إلى الخوف من الموت فيصير ضعيفاً، فاقد الإحساس بالسعادة أسيراً للخوف والقلق، غير قادر على العمل من أجل الذات ومن أجل الآخرين.

لم يبخل رائد الفلسفة السياسية النفعية - الإيطالى نيقولا ميكيافيللى - فى القرن الخامس عشر فى إسداء نصائحه إلى الأمير لورنزدى ميديشى للتحلى بالقوة مع الدهاء حتى تستمر سيطرته على مملكته . كتب ميكيافيللى فى كتابه الشهير «الأمير» فى الفصل الخاص بواجبات الأمير نحو قواته المسلحة :(لا ينبغى أن يكون للأمير هدف أو غاية سوى الحرب. ولا ينبغى أن تشغل فكر الأمير أمور أخرى سوى أمور الحرب وتنظيم الجيوش وإعدادها لخوض الحرب، لأن الحرب هى الفن الوحيد الضرورى لمن يعتلى عرش الحكم، ومن مزايا فن الحرب أنه يكفل بقاء عرش الأمير

الموروث عن آبائه الملوك السابقين ، وفن الحرب أيضاً هو الذى يمكن ذوى الهمة من الأفراد ليرتقوا العروش ويقيموا الممالك لأبنائهم وأحفادهم من بعدهم . هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ، نجد أن من يهمل شئون الحرب ويحتقر فنونها، ولا يتمرس بأساليبها ، منغمساً فى اللهو والمجون والترف يفقد دولته، ويزول عرشه، وينقضى ملكه . وسبب ضياع الممالك هو إهمال فن الحرب، والطريق المؤدى إلى إقامة الممالك هو إتقان فن الحرب، والتفوق فى مضماره). واستطرد ميكافيللى فى نصائحه لأميره بأن يقرأ التاريخ وأعمال عظماء الرجال لتدريب عقله، ويدرس أسباب انتصارهم أو انحدارهم، ليقلد المنتصرين ، ويتجنب أخطاء المهزومين.

فى نصائح ميكيافيللى لأميره لاتباع سياسة القسوة وقت اللزوم : «لا ينبغى أن يعبأ الأمير بمغبة القسوة للحفاظ على وحدة شعبه وخلوص وتمام ولائه له، لأنه بقليل من الممارسات سيكون أكثر رحمة من أولئك الذين سمحوا بالفوضى كى تنشب مخالبها فى دولهم لفرط رقة قلوبهم، ففتحوا الطريق لسفك الدماء بين رعيتهم ، ولسلب ونهب ممتلكات شعبهم، وهى المصائب التى تضير المجتمع بأسره بينما العقاب الذى ينزله الأمير ينصب على بعض الأفراد فحسب» . إذاً القسوة وسياسة القوة مطلوبة فى كثير من المواقف لتجنب ضرر أكبر، فطبيعة الإنسان التى تحوى الطيبة والمسالمة تحوى أيضاً الخسة والوضاعة اللتان تستلزمان سياسة العنف والبطش.

إذا كان قدر الإنسان أن يخوض صراع دائم فى مسيرته الحياتية، فإن ميكيافيللى قد نصح أميره فى اتباع أسلوب القوة أو أسلوب الدهاء حسب مواقف الصراع :(أن هناك أسلوبين من أساليب القتال والصراع. أولهما بالقانون، وثانيهما بالقوة. أولهما جدير بعالم البشر، وثانيهما موجود فى دنيا الوحوش والحيوانات المفترسة. ولكن الأسلوب الأول، أسلوب الصراع فى إطار الشرعية والقانون يقضى أحياناً إلى نتائج غير كافية أو غير مرضية من وجهة نظر بعض أطراف الصراع، فهم يميلون أحياناً إلى اتباع الأسلوب الثانى، ومن الضرورى إذن للأمير أن يعرف جيداً كيف يتمرس على

استخدام أسلوب البشر وأسلوب الوحوش كليهما . . وهكذا يكون الأمير مضطراً أن يعرف جيداً كيف يتصرف تصرف الوحوش مقلداً الثعلب والأسد فى آن واحد. الأسد لا يستطيع أن يحمى نفسه من الكمائن والمصائد التى يعدها الصيادون لاصطياده، والثعلب لا يمكنه أن يحمى نفسه من الذئاب ، ومن اللازم إذن أن يكون الإنسان ثعلباً ليتفادى الكمائن، وأن يكون أسداً ليخيف الذئاب . . الحاكم الحاذق لا ينبغى أن يحفل كثيراً بالوفاء عندما يكون الوفاء ضد مصالحه وعندما تكون الأسباب التى تضطره إلى الوفاء غير قائمة). لقد أوصى ميكيافيللى باتباع السياسية النفعية مع سياسة القوة، ففلسفته قائمة على إدارة الإنسان، أو الحاكم ، أو الدولة للموقف: متى تستخدم القوة، وكيف ومتى تستخدم الحيلة والدهاء، وبأى وسيلة؟ وذلك للوصول إلى الهدف "فالغاية تبرر الوسيلة" فى فلسفة ميكيافيللى.

سبق ميكيافيللى الفيلسوف الأمانى نيتشه فى حث من يصبو إلى المجد، الخوض فى الأخطار واقتحام الأهوال: (والأمراء يصبحون عظماء دون ريب عندما يتغلبون على الصعوبات والمخاطر والمعارضين، وهكذا يصنعون حظوظهم ، خصوصاً عندما يشاء الحظ أن يسبغ العظمة على أحد الأمراء الجدد الذى يحتاج إلى مظاهر العظمة بأكثر مما يحتاج إليها أمير ورث عرشه من أجداده ، مما يجعل الأمير الحديث للولاية بحاجة إلى وجود أعداء يجبرونه على حربهم ليتاح له الانتصار عليهم، وهكذا يصعد سلالم المجد التى هيأها له أعداؤه بأنفسهم). وفى نهاية نصائحه ، أوصى ميكيافيللى أميره بإنشاء جيش قوى، من جنود أكفاء وشجعان لأن القوة كما تؤدى إلى الانتصار، تساعد على بسط رايات السلام ، حين يرى الخصم أن الطرف الآخر يمتلك القوة لردعة والانتصار عليه، فيخاف منه ويرهبه ويجنح إلى السلم بدلاً من الاستسلام إذا نشبت الحروب.

رغم أن الفيلسوف اليريطانى س. جود قد أوضح فى كتابه «فصول فى الفلسفة» ومذاهبها تعدد أهداف الدولة، إلا أنه ذهب إلى حصر هذه الأهداف فى ثلاث: القوة والامتياز والثروة: (لا يمكن أن ننكر أن الدول تصبو إلى القوة، فامتلاك

امبراطورية يعتبر فى كل مكان خيراً، كما أن فقد قطعة أرض يعتبر شراً. . فإذا ما تشدقت الدول عن طريق أفواه السياسين بالقول بأن لها «رسالة مقدسة» وأن لها «أهمية للدولة» أو عن «المستقبل التاريخى» للدولة فإنهم يقصدون من وراء ذلك أن لهم «رسالة» هى أن يكتسبوا بقعة أرض أو إن يزيدوا قوتهم وأن «مصالحهم» تستلزم الاستزادة من القوة، وأن «المقدر لهم» سواء من عند الله أو من عند الحظ أو من الحركات التاريخية أو من نتاج «عبقريتهم» إنما يشير عليهم بزيادة التوسع). لقد سبق الفيلسوف جود الفاتح المغولى جنكيز خان الذى استولى على بلاد عديدة فى اسيا وأوروبا ليكون إمبراطورية وصلت إلى ثلثى عالم القرن الثالث عشر من شمال الصين وكوريا إلى أوروبا الشرقية، مروراً بالشرق الأوسط. كان من أهم أقوال جنكيز خان :« إن السعادة العظمى التى يمكن للرجل أن يعرفها هى الانتصار على أعدائه وسوقهم أمامه، وامتطاء أحصنتهم والسيطرة على ممتلكاتهم» وفى العصر الحديث، فى بداية بزوغ الحضارة الغربية الحديثة، ومع ظهور فلاسفة العلوم فى عصر العقل، ومع بداية فلسفة الشك بعد عصر الاضطهاد الدينى، ظهرت فلسفة القوة، التى أدت بعد ذلك إلى نشوب العديد من الحروب المدمرة.

عاش الفيلسوف الألمانى فريد رش نيتشه فى القرن التاسع عشر، بعد مرور ما يقارب قرنين من الزمان من بداية عصر العقل والشك فى أوروبا . كان التقدم فى المجالين التجارى والصناعى العامل الرئيسى فى تقدم العلوم ولم تعد النزعات الأفلاطونية والفنية لعصر النهضة الأوروبية تتماشى مع الاقتصاد الموسع والتطور فى الصناعة، فاتجه مؤشر الزمان إلى النهج العقلى وسيادة العلم. تصدت كهان الأساطير والعقول المغلقة للأفكار الجديدة والتقدم العلمى، ولكن لم يرتد مؤشر الزمان إلى الخلف . ظهر الفلاسفة الشكاكون أمثال ديكارت ، وهوبز، وسبينوزا، وبسكال، وفولتير، وهيوم بداية من القرن السابع عشر. لقد بدأ مفكرو أوروبا، طلائع عصر العقل الحديث الدخول فى أساسيات العقيدة من مدخل الشك والرفض والإنكار. لقد أدخلت التحسينات فى النظام الاجتماعى وأمن الأفراد فى الثقافة الأوروبية عنصر الجرأة والقوة لمواجهة الإرهاب الدينى وقسوة العقيدة المتحجرة،

وارتفع صوت المنادين بالحرية السياسية ، وحرية العقيدة، ونشر الآراء والأفكار فى مختلف اتجاهاتها.

أعلن الفيلسوف والرياضى الفرنسى ديكارت: (أنا أفكر، فإذن أنا موجود) ، فبالعقل وحده يستطيع الإنسان أن يفكر وأن يدرك ما حوله، ويتعرف على بيئته، ويطور من منظومته البشرية. ساعد مناخ الحرية فى المزيد من الأبحاث والاختراعات والاكتشافات. بدأت الدراسات الناقدة للكتاب المقدس فى ذلك العصر فى تحول العقول المتفتحة لتجعل الناس أحرار فى الإعجاب به أدباً والتشكك فيه علماً ومنطقاً.

كانت المعرفة تنتشر ببطء فى بادئ الأمر عن طريق الصحف، والمجلات، والنشرات، والكتب والمكتبات، والمدارس، والمعاهد والجامعات حتى أصبحت المعرفة قوة لا يستهان بها فى عالم تتصارع فيها القوى . كان التعليم، والبحث، والتفكير المنطقى العقلانى يجاهدوا بتروى وحمية من أجل الخسائر التى تكبدتها أوروبا من جراء الحروب الدينية فى فرنسا، والحرب الأهلية فى انجلترا، وحرب الثلاثين عاماً فى ألمانياً. لقد تغيرت الثقافة الأوروبية من الإيمان بقوى السحر والأساطير وقوى الخوارق، والاعتقاد فى الجان والشياطين، إلى ثقافة سيادة العلمانية، وسيطرة العلم والتفكير المنطقى، وانقلب تفكير الأوروبى من الانغماس فى اللاهوت، والخوف من الجحيم، والطمع فى فردوس الآخرة، إلى النهل من معرفة الجديد فى المجال العلمى والفلسفى، حتى سيدات المجتمع الأوروبى قد سايرن العصر الجديد واتجهن إلى دراسة العلوم الجديدة مثل الكيمياء ، والفيزياء، والتشريح، والرياضيات.

فى النصف الثانى من القرن السابع عشر ظهر الفيلسوف الثائر باروخ اسبينوزا يطالب الدولة أن تحيا حياة العقل، فغاية الدولة ليست الهيمنة على البشر، ولا أن تكبح جماحهم بالرهبة، بل أن تحرر الإنسان من الخوف ليعيش آمناً، يفكر ويعلن آرائه دون أن يصيبه أي أذى أو يمسه أي ضرر. إن الإنسان القوى فى فكر اسبينوزا هو

الذى لا يبغض أحداً ، ولايثير غضبه أحدا، ولا يحسد أحداً، ولا ينقم على أحد. الإنسان القوى هو الذى يعيش على هدى من العقل، يحاول قدر طاقته أن يقابل الكراهية والغضب بالحب والسلام، فالكراهية والانتقام تتفاقم إذا كانت متبادلة، والإنسان يهدى من العقل لا يرجو لنفسه شيء لا يحبه لسائر البشر. إن الإنسان الحر فى فلسفة اسبينوزا هو الإنسان القوى، السعيد ، الذى لا يطاوع إلا ضميره، ولا يفعل شيئاً إلا أن يكون عارفاً بما هو خير وأفضل. إن الإنسان الحر الذى يحيا بالعقل والمنطق السليم غالباً ما يعيش بدون خوف أو قلق، يعيش للحياة، ويحافظ على وجوده وفقاً لقاعدة مصلحته الخاصة التى لا تتعارض مع مصلحة المجتمع. إن الإنسان الحر، القوى ينأى بنفسه عن الجهال، لا يلجأ إلى الغدر ولا يقبل الخيانة. إن الإنسان الذى ينقاد للانفعالات وليس العقل، هو الإنسان الضعيف المستعبد، يقوم بالفعل والعمل بإرادته أو قسرا دون أن يعرف ما يفعل، ودون أن يعلم ما يعمل. كان اسبينوزا يرى أن المعرفة قوة، وأن قوة العقل هى وحدها التى تجعل النفس تتحكم فى انفعالاتها وتكبح جماحها.

أيضاً ظهر فى القرن الثامن عشر الفيلسوف كانط كرائد من رواد حركة التنوير الأوروبية مجاهداً فى سبيل الاتجاه العقلى وقوة العقل، كما دعى إلى حرية التعبير. كان لكانط قول مأثور :« تجرأ على أن تعرف». لقد أبدى كانط استنكاره وسخطه على تخلف التحرر الفكرى نتيجة لمحافظة الأغلبية على تراثهم القديم. عاش المفكر الفرنسى مونتسكيو فى هذا القرن يكتب فى القانون ، ويربط بين التشريعات الوضعية أي التى يضعها الإنسان، والقوانين الحتمية التى تحكم حركة الطبيعة، لقد كان مونتسكيو يؤمن بقوة القانون وسيادته.

قاد فلاسفة القرنين السابع عشر والثامن عشر نشر التسامح الدينى فى أوروبا، لقد أدى تعدد المذاهب الدينية بأن تنتهج مراكز التجارة والسياسة فى الدول الأوروبية مبدأ التسامح حتى لا يفقد رجال الأعمال عملائهم، ولا يفقد السياسيين أتباعهم. أخذ الماديون فى الانتشار مع فلسفة التحرر الفكرى والدينى واعتناق فلسفة قوة

العقل. ساعد اكتشاف العالم الجديد - فى قارتى أمريكا واستراليا - وبداية ظهور الاختراعات، وتطور الصناعات على انتشار الحرية والمناداة بالديمقراطية.

فى ذلك العصر، وهذا المناخ ظهر نيتشه رائد فلسفة القوة، مبشراً ببزوغ الديكتاتورية العسكرية القائمة على فلسفة القوة والتى انتهجها هتلر بعد ذلك فى ألمانيا. قامت فلسفة نيتشه على أن إرادة القوة هى جوهر الوجود. عن طريقها يمكن تفسير كل مظاهر الكون، وبمقدار شعورنا بالحياة والقوة يكون إدراكنا للوجود. فمن وجهة نظر نيتشه :« حيث توجد حياة، توجد أيضاً إرادة: إرادة قوة، لا إرادة حياة» كتب نيتشه فى تعريفه للخير، والشر، والسعادة، من منظوره الخاص بالقوة:

الخير : هو كل ما يعلو فى الإنسان بشعور القوة، وإرادة القوة، والقوة نفسها.

الشر : كل ما يصدر عن الضعف.

السعادة : الشعور بأن القوة تنمو وتزيد ، وبأن مقاومة ما قد قضى عليها.

لا رضى بل قوة أكثر وأكثر، لا سلام مطلقاً بل حرباً.

الضعفاء يجب أن يفنوا، ويجب أيضاً أن يساعدوا على هذا الفناء.

قام فكر نيتشه على مبدأ تقديس القوة، فالحياة لا تستطيع أن تحيا إلا على حساب حياة أخرى، أو كما كتب عبدالرحمن بدوى فى كتابه «نيتشه» :(الحياة هى النمو، وهى الرغبة فى الاقتناء، والزيادة فى الاقتناء، وما دامت الحياة نمواً ورغبة فى الاقتناء ، فإنها محتاجة إلى شىء آخر خلافها وخارجها كى تتحقق. فكأن الحياة إذاً إرادة استيلاء على الآخرين، وإرادة سطو واستغلال . وطابعها المميز هو الاغتصاب وهضم ما للآخرين فهى إذاً عنصر إفناء وهدم وإيذاء . . لكن هذا الاستيلاء والإفناء لا يمكن أن يتما دون أن يصادفا مقاومة، بل لابد للحياة الواحدة من أن تجد مقاومة من أنواع الحياة الأخرى التى تصطدم وإياها. ولهذا فإن الحياة كفاح دائم، بشرط أن نفهم هذه الكلمة فهماً واسعاً عميقاً يجعلنا نفهم العلاقة بين السيد والمسود بوصفها نضالاً، والعلاقة بين الخاضع والسيد بحسبانها مقاومة).

يمتلك الإنسان غريزتى الرغبة فى الحياة، والرغبة فى الموت، وتتفاوت طبائع البشر بين السادية أي حب تعذيب الآخرين ، وبين المازوكية أي الشعور باللذة من تعذيب الذات. فإذا كانت إرادة القوة قائمة، فمقاومة هذه الإرادة أيضاً قائمة على الطرف الآخر. إن رد الفعل الطبيعى لإرادة القوة، أي إرادة السيطرة والتملك والتسلط والإخضاع، هو المقاومة والصد ورد العدوان. والنتيجة الطبيعية لهذا الصراع هو الألم ، أو كما قال نيتشه :«إن إرادة القوة تنزع نحو المقاومات، ونحو الألم. وفى جوهر كل حياة عضوية إرادة ألم». نظرة شاملة للتاريخ ولوسائل الإعلام فى الماضى والحاضر فى الأمور السياسية والأمور العسكرية لشعوب كوكب الأرض قد تغنينا عن هذا التحليل وعن فلسفة القوة. فى الحضارات القديمة وجد الطغيان والعبودية من طغاة وملوك استعبدوا شعوبهم، ثم عرف البشر نظام الاحتلال والاستعمار، وعلى مدى هذه العصور لم تتوقف الثورات، ولم تتخاذل المقاومة. نظرة سريعة إلى ما يحدث فى فلسطين توصلنا إلى نتيجة الميل الغريزى للإنسان للمقاومة حتى لو كان أعزلاً من السلاح ، قد تتغلب غريزة الموت فيفضل الإنسان الموت كبديل للذل والهوان.

يتحول الضعف والإحساس بالمهانة فى كثير من الأحيان إلى العدوانية، فالإنسان المصاب بعاهة جسدية أو نقص فى شخصيته قد يستخدم السلوك العدوانى لتعويض نقصه ولتأكيد ذاته. يوجد أيضا ما يسمى بعدوان اليأس ، فالإنسان المحكوم عليه بالموت أو السجن مدى الحياة أو الذى لا يجد أى فائدة من حياته يكون من السهل عليه انتهاك حرمات الغير والتعدى عليهم ، فالإنسان اليائس يكون فى موقف لا يخسر فيه إذا فشل ولكن سيكسب شيء ما إذا نجح ، حتى لو كان هذا الشيء الانتقام من المجتمع الذى فرض عليه موقف اليأس ، أو من عدو أجبره على تقبل الذل والمهانة.

جاء فى المرجع السابق عن فلسفة نيتشه :« كلما كثرت المقاومة واشتدت الخصومة ، زادت قيمة الحياة، وأصبحت إرادة القوة أكبر ثروة وأعظم خصباً،

فالحياة التى تريد أن تعلو ، والإرادة التى تريد أن تتحقق فى صور أجل وأعلى، لابد لها من أن تحرص على طلب المقاومات بنفسها وأن تستثير الخصومات وألوان النضال طائعة مختارة، وأن تخلق لنفسها حالة توتر دائم سواء أكان هذا بينها وبين نفسها، أم بينها وبين الأشياء الخارجة عنها، فالحياة السامية حياة تنشد الخطر وتلح فى طلبه . . فكأن إرادة القوة إذاً هى فى الوقت نفسه إرادة الخطر : أن يجعل الإنسان حياته فى خطر . . لأن كل خطر كبير يستثير حبنا للاستطلاع بنسبة ما لدينا من قوة وشجاعة). وفى النهاية تتبلور فلسفة نيتشه فى مقولته : « كى تجنى من الوجود أسمى ما فيه ، عش فى خطر».

ليس الألم فى فلسفة نيتشه شيئاً سلبياً، لأنه إذا كان جوهر الوجود إرادة القوة، والألم ينشأ من الشعور بعدم القدرة على المقاومة وعدم الإحساس بالسيادة، لذا فإن اللذة والألم حقيقتين ضروريتين وهما أسمى ما فى ذات الإنسان من مشاعر وأحاسيس وتفاعل مع جوهر الوجود. . إن اللذة لا تنبع من إشباع الرغبة وإرضاء الإرادة ، وإنما تنشأ من انتصار الإرادة على كل ما يقف فى طريقها ، أو كما كتب نيتشه : « إن الشعور باللذة أساسه عدم إرضاء الإرادة ، بأن لا تكون قد شبعت بعد ، بسبب انعدام الخصم والمقاومة، لأن عدم الرضى يهيج الشعور بالحياة، وهو دافع كبير لاستثارتها . . وإن ما يريده الإنسان حقاً وما يريده كل جزء من الكيان عضوى، مهما صغر هذا الجزء، هو الزيادة فى القوة، وليس تجنب الألم والسعى وراء اللذة وطلبها» ، والخلاصة إذا هو أن جوهر الوجود إرادة القوة، لا إرادة الحياة.

الحياة تحتوى قوى لا نهائية ، وهذه القوى لا تنتقل إلى الفعل كلها دفعة واحدة، بل إن القليل جداً منها هو الذى يؤثر، أما الباقى من القوى، وهو قدر لا نهائى فيظل كامن فى انتظار فرصة التحرر والانطلاق. . إن إرادة القوة هى مقياس القيم فى الحياة، فتحديد المستوى، وتصنيف الطبقات نابع مما يملكه الإنسان من قوى، يستطيع المرء أن يرى إرادة القوى فى جميع أفعال الإنسان ، فبعيداً عن الزيف والأقنعة التى يخفى الإنسان نفسه ورائها يمارس الإنسان حياته من خير وشر من ما بداخله من قوة أو ضعف. فالنفوس القوية تبحث عن أندادها من الأقوياء وتسعى جاهدة نحو

الصراع والنضال، والتنافس والتناحر. أما النفوس الضعيفة فتميل إلى الخنوع والخضوع وتتوارى وراء قاموس الشفقة والرحمة، الضعيف يطالب بالعدالة والقوى له معايير مختلفة عن عدالة الضعيف ، قد يرضى الضعيف بأنصاف الحلول أو قد يرضى بما يمن عليه القوى من نفاياته وبواقى رفاهيته ، فسياسة الضعيف هى التسامح والتساهل ومساومة المغلوب على أمره ، ان الزهاد ينتشون بشعور القوة النابع من تعذيبهم لأنفسهم ، لقد استطاعوا قهر ما بداخلهم من رغبات وشهوات. إن القوة تكلف الإنسان الكثير من التعب، وتتطلب الشجاعة، وثمراتها أجمل وأحلى ما فى الوجود.

لا تختلف الدول ، والمجتمعات ، والتجمعات ، والقوميات عن الإنسان كفرد وسلوكه نحو امتلاك القوة فتطوير السلاح وتصنيعه وتكديسه ، وعبادة المال حتى إن كان لا يحتاج الإنسان إلى كل ما جمعه، وخلافه من رغبات الإنسان فى امتلاك عناصر القوى، يأكد شهوة الإنسان للسيطرة والشعور بالقوة والهيمنة. حتى فى السياسة حيث يطالب الضعفاء بالعدالة والحرية من جانب الذين يملكون القوة. الضعيف فى فلسفة نيتشه هو الإنسان المتساهل، والمساوم، الذى يلجأ إلى الحلول الوسط، أما القوى فهو المتكبر، المتسيد الذى لا يرضى إلا بالقيادة والوقوف فى الصفوف الأولى. . الضعيف ليس له قدرة على مقاومة الإغراء ، أما القوى فهو الإغراء ذاته ، لا شيء يعلوه ، لأنه هو ذاته أعلى وأسمى من كل شى ، فعقيدة القوى كما يقول نيتشه : «ما لا يقتلنى يزيدنى قوة» ، وكما يقول أيضاً: « إن الأسباب التى تؤدى إلى جعل الضعاف من الناس صغاراً حقراء، هى عينها التى تدفع الأقوياء والنادرين إلى العظمة والعلاء» . . حياة القوى خصبة ، أما حياة الفقير فجوفاء ، إذا كان كلاهما يتألم ، فإن كان ألم الفقير نابع من العوز والحاجة فألم القوة ينبع من فيض السيطرة والهيمنة . . الضعيف يريد السلام والوفاق ، والحرية والمساواة، ولكن القوى يفضل الصراع والصدام ، الضعيف يكبت شعوره بالانتقام داخله ، أما القوى فيهاجم ولا يهادن ، يرد الأهانة فى الحال، لا ينتظر حالة ضعف خصمه ، حياته كلها إثارة ، وتوثب وانتفاض، وانقضاض.

إرادة الحق فى فلسفة القوة، ليست إلا خادماً لإرادة القوة، والحقيقة ليست إلا قناعاً يخفى ورائه إرادة القوة. بالقوى تتشكل الأشياء لتتماشى مع إرادتنا. الخير والأخلاق والإحسان . . . إلخ ، هى أفكار وعقائد يفيضها القوى من زاده إلى الضعيف ، الحياة من وجهة نظر نيتشه : «مجموعة من القوى المرتبط بعضها ببعض عن طريق تغذية مشتركة . . ويتبع هذه العملية كوسيلة لتحققها كل ما يسمى باسم الإحساسات والتصورات والأفكار، أعنى أولاً مقاومة كل القوى الأخرى، وثانياً إعداد هذه القوي تبعاً لصورة الحياة وسياقها، وثالثاً تقويم الأشياء من أجل تمثلها أو طرحها والقضاء عليها) . . الموت فى نظر نيتشه جزء من الحياة ، مكملاً لها، لذا لا مبرر للخوف مما بعد الموت. ليس المطلوب منا أن يحيا حياة طويلة، وإنما نحيا حياة خصبة زاخرة، مليئة بالصراع والمقاومة.

إذا كانت الثقافة الغربية الآن قد بنيت على الفردية ، فإن نيتشه قد وضعها فى صورتها الفلسفية ، فالمساواة تحول الأفراد إلى حبات رمل فى كومة ضخمة سماها الشعب ، الذى لا يعنيه أن يرتفع مستوى الإنسانية، أو يحفل بالأفراد والمتميزين الارستقراطيين الذين هم خلاصة الإنسانية ، وواضعوا قيمها العليا ، التى هى قيم السادة لا قيم العبيد. . الفرد المتميز فى فلسفة نيتشه يحب أن يسود، وتتطور السيادة وتتصاعد حتى تصل إلى الإنسان الأعلى «Super Man» الذى يجب أن يسود الجميع. . هذا الإنسان هو الذى يملك مجموع القوى ومحصلاتها ، بعد أن انتهى من التغلب على شهواته وغرائزه ونزواته . . فتفرغ للالتحام مع الآخرين ، يصارعهم ويتغلب عليهم. المساواة ما هى إلا أكذوبة فى عالم تتصارع فيه القوى المتباينة فى أشكالها وصورها المختلفة . . إن قيمة الإنسان تقاس من وضعه فى المنظومة البشرية، أكان متقدماً أو متأخراً ، سيداً أو عبداً، قوياً أو ضعيفاً . . الإنسان الأعلى يحب ألا يتعلق بشخص، أياً كان هذا الشخص : أب أو أم ، ابن أو ابنه، زوجة أو رفيقة . . الإنسان الأعلى يجب ألا يتقيد بوطن معين، ولا يجذبه مال يأتى من نكوص الرأس ، ولا تشده سلطة ناتجة من الإذلال للأعلى، أو منصب يأتى من النفاق والرياء، الإنسان المتميز هو الذى يضع نفسه فوق القوانين وأعلى من القيم لأنه

هو واضع القوانين وناشىء القيم والأخلاق والمثل، لا يأبه بمصطلحات وضعها البشر: من خير وشر، ومن حب وكره، من قسوة وحنان... إلخ ، الإنسان الأعلى يجب أن يتحرر من أي قيود ، يخاطر بذاته من أجل اكتشاف الجديد وفرض قيمه وأخلاقه على الآخرين، الحياة نضال فى نظر الإنسان الأعلى، من أجل السيطرة والهيمنة، والفوز ، والامتلاك ، لا يعنيه شىء إلا أن يسير قدماً نحو هدفه.

الشفقة فى شريعة القوى هى فضيلة الضعيف ، ولكن القسوة وحدها هى التى ترفع الإنسان إلى أعلى، تهذبه وتقويه.. طبيعة الكون سارت منذ وجود الكائن الحى على قانون الانتخاب الطبيعى: البقاء للأقوى مادياً وعقلياً .. الذى يملك مقومات القوة : من سلطة ، وسلاح، ومال، ومعرفة، الضعيف غير جدير بالحياة، وإن عاش فهو يجب أن يبقى عبداً للقوى ، أو كما كتب نيتشه :« إن الإنسان يفقد قواه حين يشعر بالشفقة .. نحو الآخرين أو نحو نفسه .. وعن طريق الشفقة يزداد فقدان القوة الذى سببه الألم فى الحياة من قبل». يتحول نيتشه بعد ذلك إلى الشعور بالمسئولية ، فلابد للإنسان أن يكون قوى الشعور بالمسئولية عن كل ما يقوم به من أعمال ومخاطر من أجل السمو بالحياة، والصعود إلى أعلى حتى يصل إلى مرتبة الإنسان الأعلى.

ليس دائماً تستخدم القوة فى التغيير وفرض الإرادة ، ففى الجهة الأخرى المقابلة وفى الاتجاه العكسى تستلزم القوة لصد العدوان، ومقاومة فرض الإرادة. تبدأ المقاومة بالقول وتنتهى بالموت من أجل أن يثبت الإنسان أن له ذات يجب أن تحترم. إذا كانت الأيوثيميا هى المصطلح الأغريقى لرغبة الإنسان بأن يعترف به مساوياً ومكافئاً للآخرين، فإن الثيموس هى الحمية والكبرياء ،والشجاعة للحصول على الأيوثيميا. كتب الفيلسوف الألمانى هيجل فى «فينومينولوجيا العقل» :«ليس بالوسع نيل الحرية إلا بالمخاطرة بالحياة، حينئذ فقط يمكننا التدليل على أن جوهر وعى الإنسان بذاته ليس مجرد البقاء على قيد الحياة، ولا هو مجرد الصورة المباشرة التى يبزغ فيها هذا الوعى لأول مرة.. فالفرد الذى لا يخاطر بحياته قد يعترف به فردا، غير أنه لم ينل حقيقة هذا الاعتراف باعتباره وعياً مستقلاً بالذات» .. ينطبق الكفاح

من أجل إثبات الذات على الفرد وعلى الشعب كمجموعة من الأفراد تجمعهم دولة . . ومن منطلق المخاطرة بالحياة تنبع الثورات والحروب الأهلية . . وما عناصر القوة إلا سلاح فى أيدى الفرد أو لدى الدولة لإظهار القدرة علي فرض الذات، ونيل الاعتراف بالمنزلة المميزة والتقدير من الآخرين . . كتب الفيلسوف توماس هوبز : « أن كل إنسان يسعى إلى أن يقيمه الآخر كتقيمه لنفسه، فإن بدرت من الآخر بادرة تشير إلى احتقاره أو الانتقاص من قدره، كان من الطبيعى أن يحاول ، بقدر ما تواتيه الجرأة ، أن ينتزع أكبر قدر من التقدير ممن ناصبوه الاحتقار ، عن طريق إيذائهم» . من هذا المنطلق كتب فوكاياما فى كتاب «نهاية التاريخ» أنه توجد فى طبيعة الإنسان ثلاثة أسباب رئيسية للنزاعات : أولها التنافس، وثانيها فقدان الثقة بالنفس وثالثها المجد، وقد تدفع الرغبة فى المجد إلى الحروب بسبب أمور تافهة . قد يتنازع البشر - فى رأى هوبز - على الضروريات ، غير أن الكثير من الناس يتصارعون من أجل نيل الاعتراف والتقدير . إن الكثير من الحروب قد نشبت ليس من أجل الحصول على منافع مادية، بل إرضاء للكبرياء والغرور . . أشار فوكاياما فى نفس المرجع إلى قدم مفهوم «الاعتراف بالذات» فى الفلسفة السياسية :« لم يكن هيجل هو الذى اخترع المفهوم وراء الإعتراف، فهو قديم قدم الفلسفة السياسية، ويشير إلى جانب مألوف فى الشخصية الإنسانية . . غير أنه لم يكن ثمة كلمة واحدة لآلاف من السنين تستخدم للإشارة إلى ظاهرة الرغبة السيكولوچية فى نيل الاعتراف ، فقد تحدث أفلاطون على الثيموس، وتحدث ميكيافيللى عن تعطش الإنسان إلى المجد، وتحدث هوبز عن كبريائه أو خيلائه وغروره ، وتحدث روسو عن أنانيته، وألكسندر هاملتون عن حب الشهرة، وجيمس ماديسون عن الطموح ، وهيجل عن الاعتراف ، ونيتشه عن الوحش ذو الخدين الأحمرين ، وكل هذه الصفات إنما تشير إلى ذلك الجانب من الإنسان الذى يشعر بالحاجة إلى إسباغ قيمه على الأشياء، ومن بينها نفسه أولاً . . هذا الجانب من الشخصية هو المصدر الرئيسى لعواطف الكبرياء والغضب والخجل ولا يمكن إرجاعه لا إلى الرغبة ولا إلى العقل، والرغبة فى الاعتراف هى بالذات الجانب السياسى من شخصية الإنسان؛ لأنها هى التى تدفع الناس إلى

الحاجة إلى تأكيد أنفسهم فى مواجهة الآخرين» . . إن الإحساس المتضخم بالذاتية يولد العناد والمكابرة، ويؤدى إلى الصراع، أو إلى مقاومة الضغوط والعدوان، وذلك حتى يثبت للذات وللآخرين أنه يوجد كيان يجب أن ينال الاحترام والتقدير.

وهنا تنتهى فلسفة القوة والإنسان الأعلى، والتى مارسها ومازال، الكثير من البشر الذى لا يخافون من الخوض فى أجيج المخاطر، ولا يهابون الموت أو ما بعد الموت، إذا كانت الطبيعة الكونية قد قامت على منظومة القوى، فإن الإنسان قد وضعها فى إطار فلسفى ليسعد بها، أو يشقى منها، كلاً حسب طبيعته وشخصيته ، فى منظومة أخرى بشرية قائمة على التضاد والتباين والاختلاف، لتتلاحم القوى أو تتصارع ، فتزداد القوى قوة أو تتلاشى وتفنى ، تظهر قوة إمكانيات العقل التى تدير منظومة القوى، ليغرق البعض ويطفو الآخر، ويسيطر البعض ويستعبد الآخر، وتقوى بعض الدول وتتحول أخرى إلى دول تابعة وذليلة.

القوة من منظور علم النفس :

إذا كانت القوة فى الفيزياء هى القدرة على إحداث التغيير (بدون فعل التغيير) ، والطاقة هى ما يبذل من قوى لأحداث التغيير على مدى زمن معين، فإن القوة من منظور علم النفس هى القدرة على إحداث تغيير أو القدرة على منع التغيير، والطاقة أيضاً يمكن تعريفها مثل ما تم تعريفها فى الفيزياء. إذا كان إحداث التغيير نابع من الإرادة البحتة للإنسان، فالإنسان لا يحتاج إلى طاقة نفسية لإحداث التغيير أو تحمل التبعات النفسية من حدوث التغيير، ينتج من التغيير الغير إرادى ضغوط نفسية حتى إن كان هذا التغيير فى صالح الإنسان ، فتغيير السكن إلى الأحسن، وتغيير العمل إلي الأفضل، وتغيير الحالة الاجتماعية (من عدم زواج أو العكس) تؤدى إلى ضغوط نفسية ناتجة من مجرد التغيير. . تتباين الضغوط النفسية من ما يقرب العدم فى حالة التغيير الإرادى إلى ضغوط نفسية هائلة فى حالة التغيير الغير الإرادى مثل: تقييد الحرية، أو التعذيب، أو الإذلال والمهانة للإنسان السوى.

عاش الإنسان القديم وحيداً معظم وقته ، يقتات قوته من ثمار الأرض، أو من صيد الحيوان أو صيد الأسماك ، يشبع غريزته الجنسية من علاقة عابرة من الطرف الآخر، ليفترقا بعد أن يطفىء الطرفين أو طرف واحد على الأقل شهوته ، كان التغيير اللإرادى محدود القوة، ومحدود الزمن ،و حتى ظهرت المدنية والحضارات التى سارت بخطى بطيئة فى بادئ الأمر، لتقفز فى خطوات سريعة فى القرون الماضية، فبدأت مأساة الإنسان الذى استراح عقلياً وأجهد نفسياً . لقد تمكن المجتمع من السيطرة والهيمنة على فردية الإنسان ، فقل وجود الإنسان يعيش وحيداً بعد إشباع احتياجاته الأولية لينظر إلى ما بداخله من مكنون عقلى ونفسى: يفكر ويحلل، يحاور نفسه ويلوم ذاته ويقوّم من شخصيته ويحسن من سلوكه ، يعيش الإنسان الآن فى مجتمعات قد تشد من أذره النفسى والعاطفى وقد تتركه وحيداً ، قد يتعاطف معه الآخر وقد يصارعه ، إلى آخره من المتناقضات التى أدت إلى المزيد من الضغوط النفسية التى تحول الإنسان إلى كائن حى يعيش وحيدا داخل مجتمع نادرا ما يشعر به، وغالبا ما يتركه يصارع الاقدار وحده.

إذا كانت منظومة الكون ككل هى عبارة عن حركة تستمد قوتها من الطاقة ، فإن الطاقة النفسية تسمى «الليبيدو» ، تضطرب الليبيدو بين قطبين متضادين، ويشير عالم النفس يونج إلى القطبين المتعارضين بالضدين، بحيث تشتد الطاقة كلما احتدم الصراع بين الأضداد. ضرب يونج بعض الأمثلة مثل: الإقدام والإحجام، الانبساط والانقباض /الانطواء ، الواعية والخافية، للأضداد وظيفة تنظيمية ، فعندما يبلغ أحد الضدين أقصى مداه ينقلب إلى ضده الآخر ، فعادة يعقب الغضب سكون، ويتحول شعور الحب إلى كراهية والعكس صحيح ، وينصح الطب النفسى بأن يعيش الإنسان من خلال المشاعر والأحاسيس: الحب/الكره ، الغضب/السكينة، الثورة/الخضوع ، الحماس/الفتور - وذلك حتى يكون الإنسان سوى نفسياً.

كيف بدأ الإنسان التعرف على خبايا النفس البشرية، وتحليل القوى النفسية، واعتبار علم النفس علم له مناهج قائمة على مشاهدات عملية وأصول علمية. كتب عالم النفس السويسرى ك. يونج فى كتابه «علم النفس التحليلى» عن بداية الخوض

فى التحليل النفسى فى العصر الحديث والاعتراف بقدرة القوى النفسية : «ما دام كل شىء يسير على ما يرام، والطاقة النفسية تجد تطبيقاتها فى طرائق مكافئة ومنتظمة، فلا شىء يزعجنا من الداخل، ولا شك يقلقنا، ولا انقسام ينزل بأنفسنا، أما إذا انسد مجرى قناة أو أكثر من قنوات النشاط النفسى، فإن هذا يذكرنا بما يحدث للنهر الذى ينسد مجراه، ينكفىء تياره إلى الخلف إلى حيث منبعه، عندئذ يريد الإنسان الداخلى ما لا يريده الإنسان الخارجى المنظور فتقوم الحرب بيننا وبين أنفسنا، وعندئذ فقط، وفى غمرة الألم الشديد تكتشف النفس، أو بعبارة أدق يصادفنا شىء يفسد علينا أفعالنا الإرادية، شىء غريب عنا بل معاد لنا، أو مناقض لوجهة نظرنا الواعية . . كانت الحياة النفسية فيما مضى تجد تعبيرها دائماً فى نظام ميتافيزيقى من نوع ما . . أما اليوم فالإنسان الحديث لم يعد بوسعه إلا الاعتراف بقدرة القوى النفسية، برغم ما يبذله من جهود شاقة عنيدة لكيلا يعترف بها . . وهذا ما يميز عصرنا من جميع العصور الأخرى . . لم يعد بوسعنا نكران وجود قوى نفسية لا يمكنها - فى الوقت الحاضر على الأقل - أن تلاقى لها محلا فى نظام عالمنا العقلى . . بل نحن قد توسعنا فى درس هذه القوى التى جعلنا منها علماً مستقلاً قائما بذاته» . إن اشد الصراعات ضراوة هي التي تشتعل داخل الإنسان، خاصة اذا وجد ضمير حي يحاسب الذات على أخطائها .

يتألم الإنسان من صراع العاطفة إذا عاش مع الآخر، ويتعذب من الفراغ العاطفى إذا عاش وحيداً ، ففى كلتا الحالتين يقاسى الإنسان : من الآخر ومن الوحدة . تعرف العاطفة فى علم النفس بأنها اتجاه نفسى إيجابى محب . . أو سلبى كاره نحو موضوع معين . . يتصف هذا الاتجاه بأنه مشحون بشحنة انفعالية قوية سواء من الحب أو من الكره موجهة نحو موضوع العاطفة ، والعاطفة كاتجاه نفسى مكتسبه إلى حد كبير، يتعلمها الفرد من البيئة ويكتسبها كنتيجة ما تمر به من خبرات، ولما يعايشه أو يسمع من أحداث . تتميز العاطفة بدرجة ما من الثبات، ولكن قد يطرأ عليها بعض التحولات من التغيرات التى قد تطرأ على شخصية الإنسان لتراكم التجارب المختلفة التى يكتسبها على مدى سيرته الحياتية .

الثقة فى النفس قوة دافعة تمكنا من الخوض فى المخاطر من أجل الإنجاز، وبدون خوف أو كلاله يجب أن يبحث الإنسان عن مصادر القوى التى بداخله - وما أكثرها - من أجل أن يقاتل فى معارك الحياة بالقوة والحق والتسامح. القوى تؤدى إلى الانتصار ، أما الحق فبالإضافة أنه يزيد القوى قوة فإنه يتيح للإنسان خوض معارك الحياة بضمير راضى . . والتسامح مع القوة هى أسمى الصفات الإنسانية، فهى شيمة السيد القادر المتمكن ، الذكاء/ الإيمان / الصفاء الروحى / الصفاء النفسى / قوة الإرادة / . . إلخ، كلها قوى يملكها الإنسان ، لذا يجب عليه أن يتعلم ويتعود على استخدامها، وعليه لن يشعر بضعف إذا تمكن من استخدامها، ونسق بينها، وبرع فى المناورة بها. إذا كان الله قد غرس فى الإنسان غرائز الحياة والموت، وغرائز تدعو إلى السيادة وإلى العبودية ، وأنعم الله عليه بعقل يهتدى به، فبالإستسلام للضعف يتحول الإنسان إلى عبد ذليل، أو بالإرادة واستخدام القوى الداخلية يصبح الإنسان سيد كريم، مقدّر من ذاته قبل تقدير الآخرين.

إن قوة الإرادة تتأتى من المقاومة ، والصبر على الحرمان، والصبر على الأعمال التى لم يتعودها الإنسان. ليس معنى ذلك الدعوة إلى الحرمان، والرضى بشظف العيش ، ولكن الإنسان السوى هو الذى يتمتع بالمعقول من مباهج الحياة، دون أن يسمح لمباهج الحياة أن تسيطر عليه، وهذا يتطلب قوة الإرادة ليقاوم ويصبر، برضى وقناعة بأن السعادة تأتى من داخل الإنسان، وليس من العالم الخارجى. القوة النفسية هى أن يعيش الإنسان سعيداً ومرحاً، حتى إن كانت الحياة ثقيلة العبء، والعمل مضنى وشاق، والضغوط شديدة الوطأة. الإنسان القوى هو الذى يتخلص من الخوف، وينبذ الكراهية والحقد، ويقبل على العمل - حتى إن كان بدون هواه - بحماس ورغبة فى نهوه، دعت فلسفة اليوجا إلى استئصال السيىء وزرع الطيب : «إن العادة السيئة من السهل التخلص منها إذا استعضنا عنها بعادة طيبة مضادة لها، فإن الإقلاع عن عادة سيئة بقوة الإرادة عنوة وإقتدار عمل يحتاج إلى قوة فوق طاقة البشر، ولكن أزهاقها بالتضييق عليها بغرس عادة مضادة لتنمو وتحل محلها أسهل بكثير . . وهذا هو خير طريق للتخلص من العادات والميول غير المرغوب فيها».

فى كثير من الأحيان لا تكفى القوة وحدها للسيطرة والهيمنة، فقد تؤدى مقاومة ذو طبيعة حرة نابعة من عقيدة راسخة إلى خسارة كبيرة على مستخدمى القوة، فالإنسان الحر تأبه عليه كرامته أن يستسلم، ويرضى بأن يسير مصيره إلى الكفاح والموت على أن يعيش عبداً ذليلاً، إن الإنسان اليائس يكلف الطرف الآخر الكثير فى عملياته التدميرية الانتحارية، أو ما تسمى بالعمليات الإرهابية/ الفدائية - حسب وجهتى نظر الطرفين المتنازعين- أن مقولة جيمس سكوت الواردة فى كتاب «المقاومة بالحيلة» لها صحتها فى أسلوب استعمال القوة خاصة فى العصر الحديث مع تعدد مراكز القوى :«إن المرء لا يمكنه أن يحكم عن طريق القوة وحدها . . صحيح أن القوة تكون عاملاً حاسماً ، ولكن من المهم أيضاً أن يحوز المرء على ذلك العنصر النفسى الذى يحتاجه مروض الحيوانات للسيطرة على حيوانه، إن على المحكومين أن يظلوا على قناعة بأننا نحن المنتصرون» . من هذا المنطلق بنى ميكيافيللى فلسفة استخدام الدهاء مع القوة.

ورد فى «موسوعة علم النفس والتحليل النفسى» تعريف للطاقة من مفهوم علم النفس :« مصدر القوة الجسمية والنفسية التى تحرك الفرد فى تفاعله مع بيئته ، وفى ممارسته أنشطته المختلفة. ويمكن للطاقة المرتبطة برغبة ما أو دافع ما أن تكبت معه فى اللاشعور، وأن تنطلق معه أيضاً عندما تفلت معه من قبضة اللاشعور فى تعبير يظهر فى حلم أو عرض مرضى». الطاقة النفسية هى قدرة الإنسان فى تحمل الضغوط النفسية التى تقع عليه نتيجة تفاعله مع البيئة ، وتعامله مع المجتمع. فالإنسان يستمد قوة تحمل هذه الضغوط من مخزون الطاقة النفسية المخزونة داخله . . يمكن تمثيل هذه الطاقة بالبطارية التى تخزن داخلها الطاقة لاستخدامها فى الإنارة مثلاً أو فى إدارة محرك السيارة، ومع دوام الاستعمال تنتهى طاقة البطارية ، إلا إذا تم شحن البطارية مرة أخرى، كذلك الإنسان فإن كثرة الضغوط النفسية تبدد من الطاقة النفسية المخزونة داخله ولا يتم شحن هذه البطارية إلا من خلال تخفيف أو رفع هذه الضغوط، واللجوء إلى الراحة والاسترخاء والعلاج النفسى لإعادة شحن بطارية الجهاز النفسى مرة ثانية . . تنشأ الضغوط النفسية من إرغام النفس على تقبل أمور

دون رغبته أو إرادته مثل المرض والقهر، والشعور بالخزى والهوان إذا تعرض لعدوان لم يستطيع رده أو تجنبه.

جرى جدال بين علماء الإنثروبولوجيا أي علم دراسة سلوك الإنسان من المحاور الثلاث: الزمان والمكان والمجتمع، وعلماء علم الأثولوجيا أى دراسة السلوك الحيوانى ، بخصوص السلوك العدوانى للبشر، إذا كان علماء الأنثروبولوچيا قد ذهبوا إلى أن طبيعة الإنسان هى العدوان والقتال، فالإنسان مزود وراثياً بالآليات النفسية للصيد، من انفعالات ومظاهر الإثارة والفضول والخوف، وأيضاً الصلات الاجتماعية التى كانت حياة الصيد تتطلبها حيث نرى فى عالم الحيوان إن رحلة الصيد تقوم بها مجموعة من الحيوانات وذلك لتطويق الفريسة لمنعها من الهرب، يرى علماء الأثولوچيا أن العدوان كغريزة فطرية قد ساعد فى العصور القديمة على استمرار الفرد القوى والذكى على البقاء، وعليه فإنه حافظ على تطور الجنس البشرى. لقد اندثر الإنسان الضعيف، وظل القوى باقى حاملاً مشعل التقدم ، وانتقل العدوان من جيل إلى آخر كجزء من تكويننا الموروث، ولكن لشديد الأسف فإن غريزة العدوان، والتدمير، واللجوء إلى قوة الهدم تتعارض مع الحضارة الحديثة القائمة على البناء والإنتاج ، لقد حاول الإنسان أن يكبح جماح غريزته العدوانية عن طريق الدين، والقيم الأخلاقية، والقوانين، ولكنه فشل أن يقضى تماماً على النزاع والقتال، واستخدام القوة فى فض نزاعه حتى لمجرد الاختلاف فى وجهات النظر ، إن الإنسان بطبعه يسعى إلى المتاعب والمخاطر، وعندما لا يجد حوله قدر كاف منها فإنه يصطنعها لنفسه وللآخرين ، فهو يجد سعادة بالغة بعد الفوز، أو بعد الخروج من المشكلة، أي الانتصار والمباهاة بالفوز والإحساس بالريادة والسيادة.

فى سبعينيات القرن الماضى صاغ عالم النفس الأمريكى جواليان راتر محددات لتحديد سلوك الفرد بكونه باطنى أو ظاهرى، الشخص الباطنى Internal Person هو الذى يوجه سلوكه وليس للبيئه والمجتمع تأثير عليه، أما الشخص الظاهرى External Personفهو الذى يكون تحت رحمة البيئة والمجتمع، يكونا شخصيته والدافع لسلوكه. الشخص الظاهرى ينظر إلى النجاح والفشل على أنه شىء خارج

عن إرادته ، فالمجتمع والبيئة يلعبا دوراً فعالا فى نجاحه أو فشله، بينما الشخص الباطنى يقتنع بأن النجاح والفشل يعتمد على الجهود التى يبذلها، وأن قوة الإرادة هى التى تدفعه نحو النجاح . الحافز لعمل شيء ما عند الإنسان الظاهرى هو الخوف من الفشل، وهو دائم الهروب من مسئولياته تجاه نفسه ، يلقى اللوم دائماً على الظروف الخارجية ، أما الشخص الباطنى فهو لا يلجأ إلى وسائل الدفاع النفسية، ولا يتهرب من مواجهة أخطائه، فلديه قوة نفسية تعينه على التغلب على انهيارات الفشل، ليعاود الكفاح من جديد . قوى نفسية هائلة كائنة داخل الإنسان، ولكن القليل منا من يستطيع التعرف عليها وتطويعها لصالحه، واستغلالها لمواصلة تحقيق أهدافه.

تعرف الإرادة بأنها الطاقة الحيوية التى تدفع الإنسان للوصول إلى ما يصبو إليه ويتمناه ، متغلباً على الصعوبات والمقومات الخارجية والداخلية، تتمثل المقاومة الخارجية فى البيئة، الطبيعية منها والإنسانية. إذا كان الإنسان قد استطاع - إلى حد ما - السيطرة على نزوات الطبيعة، إلا أن الآخر ما زال الشر والمعوق لنا. الآخر - بالنسبة لنا - له اهتمامات قد تحثه على مقاومة ما نبذله من جهد لتحقيق أهدافنا . أما المقاومة الداخلية فتتمثل فى تضاد الغرائز الفطرية ، فالإنسان يريد امتلاك عناصر القوة، وفى الوقت ذاته يتطلع إلى الراحة، اهتمامات تسير فى اتجاهات مختلفة تتطلب من الفرد اتخاذ القرار، ثم السعي لتحقيقه، متخذ من قوة الإرادة طاقة دافعة للوصول إلى الهدف.

فى العهود الحديثة ومع ظهور عصر العلم، لاحظ علماء النفس أن القتال والحرب يشبعان احتياجات ممتدة الجذور عند الأفراد والمجتمعات، فهى احتياجات فطرية عند جميع البشر، وليس باستطاعة البشر قمع هذا الدفع الإنسانى، على الأقل بإمكانياته الحالية، وعدم توصله إلى تمييز وظائف الجينات العدوانية. رأى عالم النفس سيمجوند فرويد أن السلوك العدوانى للبشر نابع من دوافع لا شعورية بعيدة الغور فى النفس الإنسانية ، وأن تفسير هذا السلوك قد يكون مرتبطاً بوجود غريزة الحياة «ايروس» والتى تسعى للحفاظ على البشرية وتحقيق وحدتها ، ووجود أيضاً فى نفس الوقت غريزة الموت «تاناتوس» والتى تهدف إلى إثارة انتباه الفرد، وقد

تسيطر على نفوسنا وتؤدى إلى الانتحار. تتفاعل هذه الغرائز بعضها مع البعض الآخر، فالإنسان يعيش بفضل تصدى غريزة الحياة لغريزة الموت، ويغير مسارها من الاتجاه نحو النفس إلى الاتجاه نحو الآخرين، وبذلك يكون العدوان حصيلة دوافع عدوانية غريزية أعيد توجيهها نحو الآخرين. يرى فرويد أن الإنسان يحتاج إلى إشباع الدوافع العدوانية، وإن كان لا يلزم أن يتحقق ذلك عن طريق العدوان السافر. وفى النهاية يشحذ الإنسان جميع قواه لاصطناع صراع ينفث من خلاله عن طبيعته العدوانية ويثبت للآخرين ذاته وكينونته من أجل نيل الاعتراف به ككائن حى له وجود فى منظومة القوى.

قوة الضعف:

عندما يتحول الضعف إلى قوة، تتحول معها جميع العمليات العقلانية إلى مثيرات للغرائز، ويغيب العقل فى الأحلام والأوهام. أي منطق يدعو إلى أن تستطيع المرأة . . هذا الحمل الوديع . . أن تتغلب على ديكتاتور طاغى يملك قوة السلاح . وقوة السلطة ، وقوة المال. استطاعت المرأة بذكائها الفطرى ، وطبيعتها الأنثوية الضعيفة فى إدارة عواطفها وانفعالاتها ، تعرف متى تذرف الدموع وكيف تحفظها من السقوط ، تشكل مجموعة من الانفعالات المختلفة والمتباينة فى وقت واحد، أو موقف واحد. تغلف رغبة الانتقام والتدمير داخل ابتسامة ساحرة، أو سذاجة بلهاء ، ترسم على وجهها انفعال الحزن والأسى بالرغم من أن فرحة الانتصار والشماتة تفور فى داخلها.

سقط الكثير من الرجال فى شرك ضعف المرأة ، فكانت من الدهاء أن تسيطر بضعفها ، وأن تتمكن باستكانتها، وتستدر العطف بدموعها. ثلاث قصص من العصور القديمة تمثل قوة ضعف المرأة. قد تكون قصة سميراميس أسطورة تداولت فى بلاد بين النهرين، ولكنها واقعة تكررت وستتكرر فى منظومتنا البشرية ما دام الرجل يحمل فى مكنونه غريزة الجنس. أما قصة دليله فهى مسطورة فى العهد القديم، يعتقد فى صحتها ذو العقيدتين اليهودية والمسيحية ، ثالث القصص من العصور القديمة هى واقعية ، تاريخية لملكة مصر كليوباترا، خطت أحداثها فى مصر

وروما وبلاد الشام ، وباختصار سيرد فى هذا الجزء مثالين لحالات حديثة من العصر القريب دعم تواصل قدرات المرأة وتثبيت فكرة قوة الضعف عبر التاريخ ، منذ أن أغرت حواء آدم فطردا من الجنة .

على نهر دجلة أو الفرات، فى عصر الحضارة الأشورية أو البابلية، حقيقة أو خرافة، تداولت قصة «سميراميس» وتعنى الحمامة البيضاء . إذا كانت الربة «ديركيتو» أم سميراميس لها وجه امرأة وجسم سمكة إلا أن الطفلة سميراميس قد ولدت لها جسد إنسان كامل ينبعث من بدنها النور ويحمل محياها أروع أشكال الجمال . رعتها الحمائم بعد أن تركتها أ مها وحيدة مهمله فى العراء . وجدها الرعاه وعرضوها للبيع فى سوق بلدة «نينوى» ، واشتراها «سيما» ناظر اسطبلات خيول الملك، ورأها قائد جيوش الملك ووزيره الأول، فبهره بهائها والنور الذى ينبعث من عينيها فأسرته . دعاها الوزير سميراميس للاقترب منه، فركعت أمامه على ركبتيها تقدم له كل فروض الاحترام، وكان ضعفها ورقتها أقوى سلاح لديها ليقرر الزواج منها ، يلازمها كظلها، لا يطيق فراقها أو البعد عنها . إذا كانت سمراميس ابنة آلهة فى الأسطورة ، ولكنها كانت على سطح البسيطة امرأة، لديها غريزة الدهاء وقوة الضعف والإغراء، استطاعت سميراميس أن تتحكم فى الرجل الذى أحبها وعبدها، فخضع لرغباتها، وصار يأخذ بأرائها فى تسيير شئون البلاد .

فى يوم من الأيام ، قرر ملك البلاد تجهيز جيش ضخم لغزو ممالك أخرى مجاورة ، بالرغم من قوة الجيش إلا أنه عجز عن اقتحام عاصمة الأعداء، وظهرت سميراميس واستطاعت بجمالها وذكائها وحيلتها أن تحبك خطة الهجوم ، وتقدمت الفرق الغازية وكان لها النصر . . راقت سميراميس فى عين الملك وسئل وزيره عنها فأجاب بأنها زوجته .

دعى الملك سميراميس لزيارته فى قصره ، وفى دلال وتمنع ، وفى كر وفر، وفى استحياء وجرأة ، وبالدهاء والرقة ، استطاعت المرأة التغلب على ملك الملوك ، لتتفق معه على ترك زوجها ، صعقت الصدمة زوجها الوزير فآثر الانتحار . عاشت

سميراميس فى قصر الملك كمحظية ولكنها استطاعت بدهائها أن تجعل الملك يكتفى بها ويطرد محظيات القصر كله ، ثم يرفعها من درجة محظية إلى ملكة على البلاد.

عرفت سميراميس أن تجعل الملك لا يطيق لها فراقاً حتى لو كان للخروج فى الحرب أو لإخماد ثورة، ومرت الأيام ، وملت الملكة سميراميس من قسوة الملك فى الحروب، فقد كان يأمر بسلخ جلود أعدائه وقطع رؤوس الثوار على أبواب المدينة ، لقد تفاعل الطمع والملل لتقرر سميراميس أمراً. تمكن الطموح من كيان سميراميس وكان فى ذات مساء وفى جلسة عاطفية والملك كله شوق ولهفة ، تتملكة الرغبة والشهوة، فما كان من سميراميس إلا أن تطلب من الملك أن يسلمها الملك والسلطة الكاملة لمدة ثلاثة أيام ، ووافق الملك الهيمان، وطلب من حرسه الخاص أن يجيب أوامر الملكة مهما كانت هذه الأوامر . . جلست سميراميس على العرش تأمر وتنهى وتحكم، وانقضى اليوم الأول بسلام.

وكان صباح اليوم الثانى فأصدرت أوامرها للجنود أن يقبضوا على الملك فأطاعوها ، ثم أمرت بذبح الملك فنفذوا أوامرها . . وأصبحت سميراميس أشد قسوة من كل طغاة بابل وآشور فقضت على من ثاروا على جريمتها ونكلت بهم شر تنكيل ، استمر حكمها عشرين عاماً . ولم يقف أمام طموحها إلا الهزيمة فى حرب من الحروب العديدة التى خاضتها . وأخيراً طمع فى العرش ابنها ، ووجدت سميراميس أنها ضعيفة ومجهدة، مكروهه من شعبها فتنازلت عن العرش لابنها ، وخلعت التاج وخرجت إلى البادية منبوذة ووحيدة ، ولم تستطيع سميراميس الصبر على هذا الهوان فطلبت من الإله ببلوس أن يأخذها إليه ، فحولها إلى حمامة بيضاء رفرفت لتطير إلى السماء.

من القصص الأخرى التى لها دلالة تغلب الضعف على القوة ، أسطورة شمشون اليهودى على دليله الفلسطينية . يحكى الإصحاح الثالث عشر من سفر «القضاه» فى العهد القديم عن رجل يهودى من عشيرة الدانيين اسمه منوح وامرأته العاقر، فى زمن كان فيه بنو إسرائيل يعملون الشر فى عينى الرب فدفعهم الرب ليد الفلسطينيين أربعون سنة . . تراءى ملاك الرب للمرأة وقال لها، ها أنت عاقر لم

تلدى ولكنك تحبلين وتليدين أبناء، والأن فاحذرى ولا تشربى خمراً ولا مسكراً ولا تأكلى شيئاً نجساً ، فها أنك تحبلين وتليدين ابناً يخلص إسرائيل من يد الفلسطينيين . ولدت المرأة ابنا وأسمته شمشون، وكبر الصبى وباركه الرب كما أخبرنا العهد القديم. . رأى شمشون امرأة من بنات الفلسطينين الذين كانوا متسلطين على إسرائيل فى ذلك الوقت ورفض أبوه وأمه أن يتزوج امرأة من الفلسطينيين . ثم يحكى لنا العهد القديم عن أسطورة مغامرات شمشون من صراعه لأسد وتغلبه عليه بيديه العاريتين من أي سلاح ، وإشعال النار فى زرع الفلسطينيين وحرق كرومهم وزيتونهم، والدخول فى قتال مع ألف رجل والتغلب عليهم.

ذهب شمشون إلى غزة، وهناك أحب امرأة اسمها دليلة ، طلب أقطاب الفلسطينيين من دليلة أن تتملق شمشون لتعرف منه سر قوته العظيمة حتى يتمكنوا منه ويوثقوه ليذلوه، على أن يعطى كل واحد من أقطاب الفلسطنين إلى دليلة ألف ومئة شاقل فضة ، حاولت دليلة مع شمشون ثلاث مرات معرفة سر قوته وفى كل مرة يخبرها شمشون كذباً فيأتى الفلسطينيين ليوثقوه فيتغلب عليهم شمشون، وأخيراً ضعف شمشون أمام دليله وباح لها بسر قوته وقال: « إن حلقت شعرى تفارقنى قوتى وأضعف وأصير كأحد الناس» . لما رأت دليله أنه قد أخبرها بكل ما بقلبه أرسلت فدعت أقطاب الفلسطينيين وقالت لهم اصعدوا هذه المرة فإنه قد كشف لى كل قلبه. قامت دليله باغراء شمشون لينام على ركبتها ودعت رجلاً وحلقت سبع خصل من رأسه، ففارقته قوته وبدأت بإذلاله . أخذ الفلسطينييون شمشون وقلعوا عينه وأوثقوه بسلاسل من نحاس وأودعوه سجن فى غزة ، أثناء بقاءه فى السجن بدأ شعره ينبت من جديد . دعنا نحكى المأساة التراجيدية فى ما تبقى من الأسطورة كما جاءت فى العهد القديم : « وأما أقطاب الفلسطينين فاجتمعوا ليذبحوا ذبيحة عظيمة لداجون إلههم ويفرحوا وقالوا: قد دفع إلهنا ليدنا شمشون عدونا، ولما رأه الشعب مجدوا إلههم؛ لأنهم قالوا: قد دفع إلهنا ليدنا عدونا الذى خرب أرضنا وكثر قتلانا. وكان لما طابت قلوبهم أنهم قالوا: ادعوا شمشون ليلعب لنا . فدعوا شمشون من بيت السجن فلعب أمامهم وأوقفوه بين الأعمدة ، فقال شمشون للغلام الماسك

بيده: دعنى ألمس الأعمدة التى البيت قائم عليها لأستند عليها. وكان البيت مملوءاً رجالاً ونساء وكان هناك جميع أقطاب الفلسطينين وعلى السطح نحو ثلاثة ألاف رجل وامرأة ينظرون لعب شمشون، فدعا شمشون الرب وقال: يا سيدى الرب اذكرنى وشددنى يا الله هذه المره فقط فانتقم نقمة واحدة عن عينى من الفلسطينين. وقبض شمشون على العمودين المتوسطين اللذين كان البيت قائماً عليهما، واستند عليهما الواحد بيمينه والآخر بيساره، وقال شمشون: لتمت نفسى على الفلسطينين، وانحنى بقوة فسقط البيت على الأقطاب وعلى كل الشعب الذى كان فيه فكان الموتى الذين أماتهم فى موته أكثر من الذين أماتهم فى حياته. فنزل إخوته وكل بيت أبيه وحملوه وصعدوا به ودفنوه بين صرعه وأشتاول فى قبر منوح أبيه، وهو قضى لإسرائيل عشرين سنة».

أوصى بطليموس الحادى عشر قبل وفاته بأن يرث ملك مصر ابنه بطليموس الثانى عشر وابنته كليوباترا ، على أن يتزوج الأخ أخته ويشتركا معاً فى حكم البلاد. كانت كليوباترا من أصل يونانى مقدونى ، تميل إلى الشقرة. لم تكن بارعة الجمال ولكن قوامها الرشيق ، وخفة روحها، وتنوع ثقافتها ، ودماثة خلقها ، وشهوة جنسها، قد جعلها فتنة لكل من رآها، تخلب لبه وتخضعه لقوة ضعفها . حين عرف قيصر روما أن الوصى على عرش مصر قد نفى كيلوباترا ونصب نفسه نائبا عن بطليموس الشاب يحكم بأسمه، استاء وطلب ان تأتيه كليوباترا، التى احتالت للوصول إلى قيصر سراً بأن أخفت نفسها داخل فراش أو سجادة حملها تابعها إلى مسكن قيصر. ذهل القائد الرومانى حين رأها، وأسرته بشجاعتها وسرعة بديهتها ، ووقع فى شرك حبها ، وهو الذى لم يترك للحب شعاعاً يحول بينه وبين انتصاراته فى الحروب. أمر قيصر بأن تتولى كليوباترا وأخاها حكم مصر كما كانا من قبل، إلى أن تمكنت بمساعدة قيصر إلى أن تحكم قبضتها على حكم مصر منفردة، مكث قيصر إلى الاسكندرية تسعة شهور مع كليوباترا ، لاهياً عن حروبه وفوران الثورة فى روما. وضعت كليوباترا فى عام ٤٧ ق.م طفلاً من قيصر أسمته قيصرون ، حلمت كليوباترا بأن تجتمع روما مع مصر تحت ملك ابنها قيصرون . عاد قيصر إلى روما عام

٤٦ ق.م ومعه كليوباترا وزوجها / أخاها، وابنها قيصرون ، أخذا فى إخماد انتفاضات الثوار ، وإعادة النظام إلى روما ويعيد مجد الأمبراطورية الرومانية، أخذ مجلس الشيوخ فى تملق قصير وأجاز له لبس إكليل الغار والسيطرة على خزائن المال، يقترح القوانين وينفذها متخطياً مجلس الشيوخ ، غزا قيصر دول عديدة ، مغزيا روما بالمجد والغنائم والأسلاب. ولم يدوم الحال، فالحقد والضغينة كامنة فى أعماق البشر ، والغدر من شيمة الإنسان. تآمر ماركس بروتس على قيصر وطعنه طعنة مميتة استسلم لها قيصر، فمات قيصر تاركاً عهد جديد من الفوضى والحروب.

انتهت الحر وب بهزيمة المتآمرين على قيصر، وانتصار القائد أنطونيو وأعوانه. اختار أنطونيو أن تكون اليونان والشرق . . ومصر فى حيازته، مصر فى عهد مجدها، البلد الغنية والبقرة الحلوب لروما وتوابعها ، أحاط أنطونيو نفسه بالعشيقات والمحظيات ، والتف حوله الراقصات والموسيقيات، والصاخبين والمهرجين ، وفى فترة مجونه وعربدته أمر أن تأتيه كيلوباترا فى طرطوس لتجيب عن اتهامها بمساعدة عدوه كاسيوس على جمع المال والجنود. . جاءت كليوباترا إلى أنطونيو ولكن فى الوقت الذى اختارته هى ، وعلى الطريقة التى رسمتها وخططت لها . . كان أنطونيو جالس على عرش فى السوق العامة لبلدة طرطوس فى بلاد الشام، ينتظر حضور كليوباترا كسيرة وذليلة لتدافع عن نفسها، ولكنها جاءت فى موكب نهرى تحيطها العزة والرومانسية. ركبت كليوباترا قارب ذى أشرعة أرجوانية، ومجاديف فضية ، يحليه أشكال ذهبية ، يضرب الماء على أنغام الناى والجيتار ، وقد ألبست وصيفاتها زى بحارة ، أما هى فقد تزينت بزى الزهرة فينوس ، نائمة تحت سرادق من قماش مرشى من ذهب ، تركوا أهل طرطوس أنطونيو وحيداً جالساً على عرشه، راكضين ومنبهرين لموكب كليوباترا النهرى. دعت كليوباترا أنطونيو لتناول العشاء على قاربها ، وقدمت إليه أشهى أنواع الطعام وأحلى أصناف الشراب. لقد كانت كليوباترا فى ذلك الوقت ذات تسعة وعشرين ربيعاً، أي فى قمة أنوثتها وجاذبيتها بعد أن اكتملت مفاتنها وتجسد قدها . . بدأ اللقاء باللوم اللين اللطيف، وانتهى اللقاء بإهدائها بلاد فينيقيا وسوريا وقبرص وأجزاء من قليقيه ، وبلاد العرب واليهود. . بجانب مصر . . دعت كليوباترا بدورها أنطونيو لزيارتها فى الاسكندرية

فلبى الدعوة راكضاً، وناهلاً من سكرات مفاتن وشهوات كليوباترا ، ناسياً أن امبراطوريته فى حاجة إلى من يحكمها.

فى هذه الأثناء كانت زوجة أنطونيو وأخوها يتآمران لإسقاطه وانتزاع سلطانه فى روما ، ثم ماتت زوجته وتزوج من أكتافيا التى زفت إليه فى احتفال رسمى فى روما، ثم طلقها أنطونيو بعد ذلك ليتزوج من كليوباترا، وثبتها هى وابنها قيصرون حاكمين معاً على مصر وقبرص ، وخلع الولايات الشرقية من الأمبراطورية الرومانية على ابنه وابنته من كليوباترا . دخل أنطونيو وكليوباترا فى حرب مع أكتافيان أحد قواد روما حتى كانت المعركة البحرية الفاصلة التى انهزم فيها جيوش أنطونيو وكليوباترا، اللذان اثرا الانسحاب إلى الاسكندرية، يتبعهما أكتافيان، ترامى إلى أنطونيو أن كليوباترا قد ماتت فطعن نفسه طعنة قضت على حياته، ولما علم أن الخبر كان كاذباً طلب من أتباعه أن ينقلوه إلى البرج الذى أوت إليه كليوباترا، ومات أنطونيو بين ذراعيها ، تراقص فى مقلتى كليوباترا ذل وهوان الأسر من أكتافيان، فلبست ثياب ملكية ووضعت ثعبان سام على صدرها وماتت كليوباترا، وحذت حذوها وصيفاتها ، وأخيراً دفنت كليوباتر بجوار أنطونيو بعد أن أخضعت لقوة ضعفها اثنين «قيصر وأنطونيو» من أقوى قواد وحكام أكبر إمبراطورية عرفها التاريخ القديم وهى الإمبراطورية الرومانية.

مثالين يمكن سردهما لقوة ضعف المرأة فى العصر الحديث. الأولى كانت إيفا بيرون التى بدأت حياتها العملية كممثلة فى الإذاعة والمسرح، حتى تعرفت على رجل العسكرية والسياسة جوان دومينجو بيرون وتزوجته عام ١٩٤٥، وفى عام ١٩٤٦ انتخب بيرون رئيساً للأرجنتين فركزت زوجته إيفا نشاطها فى المجال الاجتماعى، وانتشرت شعبيتها حتى أصبحت تحكم الأرجنتين مع زوجها دون منصب رسمى، وقد وصفها البعض بأنها كانت الحاكم الفعلى للأرجنتين. المثال الثانى هو للسيدة جاكلين بوفير التى تزوجت من جون كنيدى عام ١٩٥٣، ثم أصبحت السيدة الأولى للولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦١ بانتخاب جون كنيدى رئيساً لأمريكا . . أغتيل جون كنيدى عام ١٩٦٣ وترملت جاكلين ، ثم تزوجت

بعد ذلك من البليونير اليونانى أوناسيس عام ١٩٦٨ . . عاشت جاكلين حياتها مستمتعة بقوة السلطان والمركز والمال ، وجاذبيتها التى تغلبت على قوى لم يستطيع الحصول عليها أعتى الرجال .

لم يقتصر قوة الضعف على المرأة ، بل شمل تحول عجز الرجل إلى قوة، لقد واصل الدكتور طه حسين - بعد إصابته بالعمى - تعليمه ونجاحه حتى حصوله على درجة الدكتوراه ، وأصبح علما من أعلام الفكر والأدب، ووزيراً لوزارة المعارف ، رجل آخر عاش للجهاد بالرغم من عجزه ، وحتى اغتياله فى مارس ٢٠٠٤ ، وهو الشيخ أحمد ياسين الذى أصيب فى شبابه بشلل رباعى نتج عنه عدم حركة الساقين والذراعين . . كتب الدكتور عبدالعزيز الرنتيسى - قبل اغتياله هو أيضاً - عن قوة ضعف الشيخ أحمد ياسين مؤسس حركة المقاومة الفلسطينية الإسلامية حماس «من المعلوم أن الذين يصابون بمصيبة من هذا القبيل يركنون إلى الضعف، ويستسلمون للعجز، فلا ترى أحدهم إلا وقد أصبح على هامش الحياة كما مهملاً ، لا يؤثر فى مجرياتها ولا يتأثر بها فيغدو عالة على المجتمع ، وعبئاً ثقيلاً على ذويه. ولكن الأمر العجيب واللافت للنظر أن الشيخ أحمد ياسين قد سجل أول انتصار فى حياته عندما صنع من شلله حركة، ومن عجزه إرادة ومن ضعفه قوة ، فانتصرت الإرادة الروحية لدى الشيخ أحمد ياسين على ضعف الجسد الهامد» .